مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 13 العدد: 05 السنة 2021 ص 51 - 69

تاريخ الإرسال: 2020/01/17 تاريخ القبول: 2021/09/15
تاريخ النشر: 2021/11/04

أهمية استقراء أسماء الأعلام والمواقع في مباحث التاريخ الاجتماعي والثقافي للمغرب الأوسط.

The importance of extrapolating names of person and places in the social and cultural history of the central Maghreb.

طالب دكتوراه محمد كريم
جامعة قالمة (الجزائر) krim.mohamed2@gmail.com

الملخص:

الفعل التّسموي حدث أنثروبولوجي مشحون بالعديد من الدّلالات التي تشهد على الحدث، وتُفصِح عن الاعتقاد السائد، وتعبِّر عن الثّقافة المحليّة الموروثة، وتكشف عن الهوية الثقافية للجماعة الإثنية، كما أنها تحمل تغيّرات اجتماعية وإفرازات ثقافية مختلفة، ومثل هذا الثّراء هو ما يعطي أهميّة لمثل هذا النوع من الدّراسات، تحتاج إلى عناية أكبر من الباحثين حتى يرتفع معها سقف طموح الأبحاث من أجل تقديم قراءات جديدة، أو تجديد بعض المسلمات، وخلق نوع من الأصالة البحثيّة .

تُعتبر هذه الدراسة محاولة للفت عناية الباحثين، وتوجيه أنظارهم إلى أهمية الدراسات الأونوماستيكية باعتبارها إحدى الأدوات الجديدة التي يمكنها أن تقدّم الإضافة لمباحث التاريخ والثقافي والاجتماعي للمغرب الأوسط .

الكلمات المفتاحية: الأونوماستيك، الطوبونيميا، أسماء الأعلام، مجتمع، ثقافة .

Abstract:

Naming act, is an anthropological event charged with many indications attesting to the event, it expresses the prevailing belief, expresses the inherited local culture, reveals the cultural identity of the ethnic group, and also carries social changes And different cultural secretions such as this richness is what gives importance to this type of studies, needs more attention from researchers so that the ceiling of ambition rises with research in providing new readings or renewing some postulates and creating a kind of research originality.

This study is an attempt to draw the attention of researchers and direct their attention to the importance of anomastic studies as one of the new tools that can provide an addition to the cultural and social history topics of the central Maghreb.

keywords : Onomastic, Toponymie , Proper Names, Society, Culture **.**

المؤلف المرسل : كريم محمد : KRIM.MOHAMED2@GMAIL.COM

مقدمة:

أخذت تتّجه الدراسات التاريخيّة في الآونة الأخيرة نحو تجديد المقاربات البحثية عند تناولها للمواضيع الاجتماعية والثقافية، سعيا منها نحو تقديم قراءات أكثر موضوعية واقتربا من الحقيقة، ولا يبدو أن المصادر قد كشفت عن جميع أسرارها خصوصا وأن عددا كبيرا من الأسماء التي نعثر عليها في بين فقراتها لا تزال غامضة ولا تفصح بشكل كامل عن مدلولاتها ومضامينها.

تُعتبر زحزحة مركز اهتمام البحث التاريخي نحو "**المقاربة الاسمية**" أحد الطرق الجديدة التي يمكن أن تقدم إضافات بحثّية وذلك عن طريق الحفرِ في الأسماء واستقرائها ومُسائلتها، والبحث بين طياتها عن ما تحمله من معطيات

حضارية، أو مرجعيات فكرية أو عقدية، وما يمكن أن تُدلّل عليه من أنظمة وأنماط سلوكيّة وهوياتيّة وهي العملية التي تمثّل جوهر اهتمام الدراسة الأونوماستيكية، فما هي هذه الدراسة ؟ وما هي الإضافات المحتمل تقديمها لمبحث التاريخ الاجتماعي والثقافي للمغرب الأوسط في العصر الوسيط ؟

1. الأسماء رساميل ثقافية واجتماعية.

يأخذ الاسم مصدره في اللّغة العربيّة من الفعل الثلاثي "وسم"، الدّال على معنى "العلامة"، فالاسم، وسمٌ على المُسمّى وعلامةٌ له[1]، وأمّا "التّسمية" فتعني النّبزُ أو تعليقُ الاسم بالمعنى على جهةِ الابتداءِ[2]، والأسماء ألفاظ موضوعة على جواهر بغرضِ التَّمييز والتّعيين[3]، يُشكّل هذا التّعيينُ أسماءَ أعلامٍ دالّةٍ على مُعيّن بلا قرينة كخالد وفاطمةَ ودِمَشقَ والنّيلِ، ومنه أسماء البلادِ والأشخاص والدُّولِ والقبائل والأنهار والبحار والجبال"[4]، وعملية إكساب الشخص أو المكان اسما خاصا هو نوع من الاعتراف بوجوده، يكون معبِّرا عن هوية الجماعة، وحاملاً للكثير من المعاني والدّلالات الثّقافية .

يحصرُ الإثنولوجي ليفي ستراوس(Lévi- Strauss) وظائف التّسمية في أمور ثلاث هي: التّمييز والتّصنيف والمعنى[5]، وعلى اعتبار مقدرة الاسم على الارتباط بسلسلةٍ من الانتماءات المختلفة: عائلية، قبلية، سياسية، دينية، إقليمية، تاريخية... الخ، بحيث تمارس كل دلالةٍ انتماءً ودورا محدّدًا لهويّة الجماعة. هكذا يمكن للاسم أن يحمل دوراً دالاً على الطّبقة، وعلى من يُطلق عليهم ومن يُطلقونه في نفس الوقت[6]، يتحوّل من مجرّد لفظة، إلى مؤشر دالٍّ على رأسمال ثقافي واجتماعي كما عبّر عن ذلك السّوسيولوجي الفرنسي بيار بورديو (Pierre Bourdieux) يختزنه الاسم دالا على موروث ثقافي لحضارات مختلفة، تكوّنت من

خلال التاريخ والديّن والثّقافات التي وصلت إلينا عبر وسائل متعدِّدة كالاحتكاك بالآخرين عن طريق الفتوحات والاستعمار والهجرات والانتشار الثقافي[7] .

إنّ مثل هذه الارتباطات الإيحائية والدّلالية لأسماء الأعلام، تجعل من مهمّة دراسة الاسم للكشف عن مخزوناته الثّقافيّة والهوياتية أمرًا فيه الكثير من الصّعوبة، فقد ينفتح على نفسه؛ فيصبح سؤالا حاملا لجوابه، ونصّا مفتوحًا على دلالاته المتعدّدة، قد تكون بائنة وظاهرة وصريحة[8]، يفصح عن قضايا اجتماعية وثقافية مختلفة، وقد تعسُر قراءته فيصبح تفكيكه مغامرةً صعبةً ومعقّدةً، وقد نخطئ في التّحليل ونُحمِّل الاسم ما لا يحتمل من دلالات وقيم[9]، وقد يحدث أحيانا أخرى أن يكون "التأويل متعسِّفا" كما أشارت إلى ذلك الباحثة "رحمة تويراس" عندما تحدّثت عن امتلاك الأسماء لمنطق خاص بها ضمن الأنساق الثّقافية واللغوية تجعلها تجمد على صيغ ومعان قديمةً، تصعّب تفكيكها والوصول إلى أجوبة شافيّة لها[10]، وهذا ما جعل "ليفي ستراوس" (Lévi– Strauss) يقترح أنه لفهم الاسم لابد من الرّجوع إلى الظروف الاجتماعية التي كوّنت إطار التّفكير بالاسم والتّسمية، فكلمّا تغيرّت الظّروف تغيّر إطار التفكير 11 .

2 . ماهية الدراسة الأنوماستيكية وغاياتها:

مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بدأت فكرة الاهتمام بالأسماء تطرح نفسها بقوّة كحقل بحثي منفتح على نتائج علم اللّسانيات من جهة، وعلى ما تقدمه نتائج الأبحاث التاريخية من جهة أخرى، خصوصا وأنّ الأسماء تشغل حيّزا معتبرا من الوثائق التّاريخية والنصوص المصدرية، وإعادة طرح هذه الأسماء وتفكيكها استنادا إلى طرق البحث في علم الأسماء المطوّرة، من شأنه أن يحقّق نتائج جديدة، فظهرت فعلا مجموعة من الدراسات التي اهتمت بأسماء الأعلام والمواقع، مثل تلك الدراسة التي أنجزها الفرنسي أوغوست لونون (Auguste[12]

(Longnon) (1844–1911) والمعنونة بـ أسماء أماكن فرنسا، أصولها، معانيها، وتحوّلاتها (Les Noms de Lieu de la France; leur origine, leur signification, leurs transformations). وهي في الحقيقة ثمرة المجهودات التي كان يبذلها "لونون" ممثلة في دروس كان يلقيها على طلبته في المعهد الفرنسي وملاحظات كان يدوّنها، اعتنت بها العائلة بعد وفاته، وأُخرجت في شكل دراسة تعهّدها طالبان وأخرجت للأوساط العلمية بعد خمس (05) سنوات من وفاته[13]، فقد كشفت هذه الخطوة عن وثروة معرفية تختزنها الأسماء خاصة إذا تمّ التقعيد الجيّد لها وفق مناهج وأدوات خاصة .

أخذت معالم دراسة الأسماء تتّضح تدريجيّا في العشرينيات من القرن الماضي، فقد كتب "ألبارت دوزا" **(Albert Dauzat) (1877–1955)** بعض الأعمال التي اهتمت بهذا التّوجه البحثي، وأخرج كتابه المعنون بـ "أسماء الأماكن: أصولها وتطورها، مدن، قرى، بلدان، منابع مياه، جبال أماكن"[14] **(**Les Noms de lieux : origine et évolution ,villes et villages ,pays, cours d'eau, lieux-dits montagnes,**)** سنة 1926م، وهو البحث الذي فتح الباب نحو اهتمامات معمّقة بهذا التوجه الجديد، وبدأت تتشكل معه لغة معجميّة خاصة بألفاظ هذا العلم، وأثمرت الجهود عن انعقاد أول مؤتمر دولي في باريس أيام 25– 29 جويلية 1938[15] تحت اسم "المؤتمر الدولي لعلوم الأونوماستيك" **(**Congrés international des sciences onomastiques**)**، مهّد الأرضية لالتقاء الباحثين المهتمين بهذا العلم، وتقاربت فيه الأفكار وتوحّدت فيه الجهود، وأسس لمجموعة مؤتمرات لاحقة مثل "مؤتمر باريس" 1947م، ثم بروكسل 1948م، ليصبح فيما بعد تقليدا علميّا لا يزال متواصلا إلى يومنا هذا .

أخذت معالم البحث في هذا العلم تتّضح أكثر فأكثر بعد المؤتمرات الدولية الجامعة إضافة إلى المجهودات الفردية والمؤسساتية نخصّ بالذكر أعمال "الجمعيّة الفرنسيّة للدراسة الأونوماستيكية" التي تأسست سنة 1960م، وأنتجت مجموعة أعمال مهمّة مُمثّلةً في المجلة الأونوماستيكية (Revue d'onomastique) التي كانت استمرارية لمجلة "ألبارت دوزا"(Albert Dauzat) ، وكذا كرّاسات الجمعيّة (d'onomastique Cahiers de la société française) بداية من 1960م التي جمعت كثيرًا من الأعمال المختصّة والجادّة، تطرّقت إلى دراسة أسماء الأعلام في فرنسا وبقيّة الدول الفرنكوفونية الأخرى، ثم أخذت هذه الأعمال فيما بعد تنفتح تدريجيّا على بعض المباحث المعرفية الأخرى بما فيها الدراسات التّاريخية .

تُعرف الدراسة العلميّة لأسماء الأعلام والمواقع من حيث تطوّرها واشتقاقها ومعناها وتحوّلاتها بالدراسة "الأنوماستيكية" (onomastique) ، وتشتقّ اسمها من الكلمة اليونانية (ονομαστικη) المتكون في حد ذاتها من مصطلح "أونوما" أي الإسم (όνομα)، ويراد من خلالها لدى الأوساط الأكاديمية تأدية معنى "تعيين اسم أو تسمية"[16]، فيحقّق جمع الكلمتين المعنى اللّغوي "دراسة اسم العلم"، وبالجمع أسماء الأعلام باختلافها وتنوّعها، وتتفرّع هذه الدّراسة إلى مبحثين كبيرين هما الأنثروبونيميا (Anthroponymie) التي تُعنى بدراسة أسماء الأعلام البشرية والطوبونيميا (Toponymie) وتعنى بدراسة أسماء الأماكن وأصولها، والبحث في معناها وتفسيرها، ورسم تحوّلاتها على مرّ العصور أو بعض العصور، وتحديد قيمتها التّراثية والفكرية، وملامح التّغيير في أنساقها اللغوية[17]، وذلك اعتمادا على علوم مساعدة كالتاريخ والجغرافيا والأنثروبولوجيا وغيرها[18]، وتتنوّع فروع الطوبونيميا بتنوّع المكان، فهناك مثلا الأورونيميا(Oronymie) وتهتم بدراسة أسماء الجبال، والهيدرونيميا(Hydronymie) وتهتم بدراسة المجاري والمسطحات المائية،

والميكروطوبونيميا(Microtoponymie) وتهتم بدراسة أسماء الأماكن، والأودونيميا(Odonymie) وتهتم بدراسة أسماء الطرق والأزقة والشوارع[19]. فالطوبونيميا وراء كل هذه الفروع، تُعنى بدراسة أسماء الأماكن الآهلة وغير الآهلة بالسكان على اختلافها، وتُعنى بالأسماء المرتبطة بالأرض والأنهار والمسالك والطرقات، كما السفوح والمرتفعات، وثانيا لأنّه لا يكتفي بالنظر في أسماء بعض المنازل والحدائق أو القصور أو الفنادق وأسماء المستوطنات البشريّة أو التّاريخية أو المناطق الإدارية، بل تُعنى بأسماء البحار والبحيرات والبرك والخلجان البحريّة، وأسماء الجبال والسّلاسل، وأسماء الغابات والقلاع والمزارع...الخ، وهذا ما يجعله تخصّصًا بالغ الأهميّة .[20]

3. مبحث الأسماء في الدراسات التاريخية في الجزائر

لقد اهتمّت الكتابة التّاريخية الفرنسيّة بالجزائر من خلال مجموعة متنوّعة من الأعمال التاريخيّة والأثرية، ووردت الأعمال الأولى مرتبطة بدوائر الاستشراق الفرنسية، كون الاهتمام بالجزائر هو اهتمام بإحدى المقاطعات الفرنسية وراء البحار، ففي أواسط القرن الماضي وبالتحديد في سنة 1949م نشر اللّغوي الفرنسيّ أندريه بلغرين (Andrée Pelligrin) أحد أفراد الجمعيّة اللّسانيّة لباريس دراسة تحت عنوان: (Essai sur les noms de lieux d'Algérie et de Tunisie: étymologie ,signification)[21] ، يَعتبر إبراهيم عطوي[22] هذا الكتاب هو أول دراسة غربيّة جادّة عن موضوع الطوبونيميا في الجزائر وبلدان شمال إفريقيا .

لم تول الجزائر المستقلة أهميّة للبحث الطوبونيمي، ولم يحظ باهتمام الكتاب والدارسين على حد سواء لاعتبارات كثيرة، إضافة إلى قلة الوعي بمدى أهميّة هذا العلم في مختلف المجالات"[23]، ويُعتبر "مصطفى الأشرف" أحد القلائل الذين أشاروا إلى أهميّة هذا التّوجه البحثي عندما عَنون أحد كُتبه باسم "أسماء وأماكن"(Des

Noms et Des Lieux) خصّص فصله الثالث للحديث عن بعض أسماء الأعلام والمدن في الجزائر، ولَفت الانتباه إلى بعض المضامين الثّقافية والاجتماعية لمدلولات الأسماء وايحاءاتها الهوياتية [24].

بدأ الاهتمام بدراسة الأسماء مع مطلع القرن الحالي يتزايد، خاصة بعد ظهور بعض الأعمال التّاريخية الجادّة في مجال الطوبونيميا في كل من تونس والمغرب الأقصى، وبدأ الاهتمام بالاسم يأخذ منحى تصاعديّا انطلاقا من مجموع الأعمال التي أنجزت في الحقل اللّغوي اللّساني خاصة، صادرة عن مراكز بحث، أو بعض الرسائل الجامعية في إطار التحضير لنيل إحدى الدرجات العلمية كالماجستير والدكتوراه، أو تلك الأعمال الناتجة عن جهود فرديّة مستقلة كالقواميس الطّوبونيمية أو بعض الأبحاث من طبيعة أخرى كالمقالات والملتقيات الوطنية والدولية، وشجّع على ذلك أيضا مجموعُ الأعمال التي جاءت لتُبرز هويّة المكوّن الأمازيغي باعتباره جزءا من الثّقافة الجزائرية بعد الاعتراف باللغة الأمازيغية كلغة وطنية، وتأسيس المحافظة السامية للّغة الأمازيغية تأثيث وإعادة وبعث هذه اللّغة.

يعتبر مركز البحث في الأنثروبولوجية الاجتماعية والثقافية(CRASC) من أهم المعاهد التي اهتمّت بدراسة أسماء الأعلام والأماكن من خلال مجموع إصداراتها مثل: "المصنّف البيبليوغرافي العام لأسماء الأماكن والأشخاص الجزائرية"[25]، وهو الكتاب الذي حاول جمع أسماء جميع المصادر والمراجع والمقالات والرسائل الجامعية التي اهتمت بالأسماء، إضافة إلى إصدارات جماعية أخرى مثل كتاب: "الأسماء والتّسمية– أسماء الأماكن القبائل والأشخاص في الجزائر"، وكتاب "أسماء الأعلام المغاربيّة للإنسان السّكن التّضاريس والماء". وعلى مستوى الجامعات ظهرت مجموعة من الأعمال الفرديّة لأساتذة جامعيين وباحثين آخرين مثل القواميس الطوبونيمية التي اهتمت بالبحث في معاني أسماء الأماكن مثل

دراسة فوضيل شريقان(Habités Toponymie Algérienne Des Lieux) ، ودراسة "محمد أكلي حدادو" الذي أسّس قاموسًا ضخما عنونه بـ(Dictionnaire Toponymique et Historique de l'Algérie)[26]، جمع فيه عددا كبيرا من أسماء الأماكن الجزائريّة، وحاول تفسير معناها طوبونيميًّا، ثمّ معجم آخر لقائمة بالمصطلحات العربيّة والبربرية المشكّلة للطوبونيميا الجزائرية[27]، وهي الجهود التي أخذت تُترجَم لاحقا في عقد بعض الملتقيات الوطنيّة والدولية مثل: الملتقى الوطني حول الطوبونيميا بجيجل الذي طُبعت أعماله في شكل كتاب تحت عنوان (De la Toponymie Algérienne du Local au National)[28] .

بدأ التّوجه العلمي الأكاديمي يظهر من خلال مجموعة من الرّسائل الجامعيّة في كليات البحث التّاريخي واللّغوي مثل رسائل الدكتوراه والماجستير، نشير إلى رسالة الدكتوراه التي تقدّم بها "حبيب حاج أحمد" في الأدب الشعبي حول "أسماء الأماكن الأمازيغية في منطقة تلمسان دراسة مواقعية"[29]، وكذا رسالة الدكتوراه المقدّمة في قسم التّاريخ بجامعة تلمسان التي أعدّتها الطّالبة "فاطمة الزهراء نجراوي" حول موضوع "الدّراسة الإيتيمولوجيّة لأسماء الأماكن المأهولة لمنطقة تلمسان"[30]، أمّا ما تعلّق بدراسة الأعلام أو ما يسمّى بالأنثروبونيم، فإنّا نشير إلى الدّراسة التي تقدّمت بها "فتيحة رمضاني" حول عوامل اختيار الأسماء الشّخصيّة في المجتمع الجزائري[31]، وهي دراسة مقدّمة لنيل شهادة الماجستير في الأنثروبولوجيا من جامعة قسنطينة .

تركّزت اهتمامات غالبيّة هذه الأعمال بالفترة الراهنة من تاريخ وثقافة مجتمع المغرب الأوسط، مع تسجيل ملاحظة أن هذه البحوث العلمية –على قلّتها– بقيت حكرًا على الدراسات اللّغوية اللسانيّة، وبقي حقل التاريخ منغلقا على مثل هذه العلوم المساعدة، إلا في تلك الاجتهادات المعزولة لبعض المؤرخين الذين تطرّقوا إلى بعض

أسماء الأعلام أو المواقع في محاولة لتفسيرها وإرجاعها إلى أصولها اللّغوية، لكن الكثير منها بقي يفتقر إلى أدوات البحث العلمي الأونوماستيكي .

4. إشكالات تعترض البحث الأونوماستيكي في تاريخ المغرب الأوسط

إنّ طرح مسألة محفوظيّة الأسماء في أشكالها الأولى كما نطق بها ابتداءً، والّتعامل معها كما وردت في المصادر، أو أخذها بنوع من التّسليم الذي يقصد منه اعتبارها صيغا اسمية ابتدائيةً غير مبنيّة على مرجعيّات لغويّة سابقة وتحوّلات حدثت عبر مسارات تاريخيّة قديمة، مسألةٌ فيها الكثير من المجازفة البحثية، ومحكومٌ عليها مُسبقا بالخطأ، خصوصا والحديث يخصّ بلاد المغرب الإسلامي في العصر الوسيط، فالمنطقةُ بشهادة الباحثين والشواهد الأثرية المتناثرة هنا وهناك تشهد على حجم التّنوع الحضاري الذي عرفته المنطقة منذ عصور طويلةٍ، فالبربر كانوا قد تطعّموا منذ فجر التاريخ بعناصر وافدة في شكل هجرات شرقّية، جنوبيّة، متوسّطية، فالفينيقيّون وجدوا طريقهم إلى هذه البلاد منذ القرن 05ق م، ثمّ الرومان، ثمّ البيزنطيّون والوندال، دون أن نَغفل عن الهجرات الكثيرة لأقوام من الشّرق ومن الجنوب، وشكّل ذلك خلاصة البربر –كما عبّر عنها قاببريال كامبس(Gabriel Camps) بقوله بأنّ "البربر قد دخلت في تكوينهم الكثرة الكثيرة من الأقوام، يجتمع فيها السريان والعرب واليهود والكوشيون والأريان والفينيقيون والكنعانيون والأيبيريون والوندال والإغريق واللاّتين والزنوج ."[32]

إنّ مثل هذا الاختلاف العرقي والتّنوّع الحضاري هو مؤشّر دلاليّ على حجم التنوّع اللّغوي الحاصل على مستوى اللّسان وأنماط التّسمية في المغرب الأوسط، فاللاتينيّة واليونانيّة والفينيقيّة والعربية والبربرية، لغات مختلفة في أنظمتها الصوتية، وفي عدد حروفها ومخارج أصواتها، ثم ترتيب الحروف المتحرّكة والسواكن فيها، وهذا يجعل من بقاء اللّفظة ومحافظتها على شكلها الأول مسألة تحتاج إلى تريث

ونظر، فالواقع يتكلّم عن تغّير اسمي بقي يحصل، وبقيت الأسماء تتغيّر وتتشوّه عن أصلها الابتدائي طالما أنّ هناك تغيرات حضارية ومجتمعية، فالمصادر حفظت هذه الأسماء، وعبّرت بلسان أقوامها وكيّفتها مع ألسنتها وأنظمتها الصوتيّة، وهذه حقيقة أقرّت بها المصادر عندما تحدّثت عن صعوبة لفظ الأسماء البربرية وكتابتها في لغتها الأصلية .

لقد تسبّب هذا التنوع اللغوي بتسلّل كثير من الأخطاء والتّشوهات النطقيّة التي أصابت الأسماء وحرّفتها عن أصلها، إذ لا يطرح الاسم مشكلة داخل لغته، غير أنّ الإشكال الحقيقي كان يختفي وراء تلك الأسماء البربرية التي كان يرى فيها المدوّن الأجنبي مجرّد كتل صوتيّة ونغمات لم يهتم كثيرا بضبطها كما نطق بها في ألسن أهلها خصوصا وأنها لم تكن تحمل معان واضحة عند تلك الأقوام المختلفة لغويا، وبالتالي لا يضر كثيرا تحويرها وتعديلها. يفهم من هذا أنّ المصادر المشرقية عدّلت كثيرا من الصيّغ الاسمية البربرية عندما لجأت إلى تعريب أسماء الأعلام والأماكن، وهي العمليّة التي أوصلت إلى تحريفات طالت هذه الأسماء، وذهبت بها بعيدا عن معناها، وخلقت في أحيان أخرى تعددّا لفظيا لاسم المكان الواحد .

لم تكن الحضارة الإسلامية مختلفة كثيرا عن باقي الحضارات الأخرى، فقد تمّ إخضاع وتكييف الشواهد الاسمية لمقتضيات اللّسان العربي، هي حقيقة تفطّن إليها ابن خلدون عندما أشار إلى أن النّص المكتوب لا يعكس بالضرورة النّص المقروء[33]، يتحدّث "إبراهيم الزّقوطي" عن تأثير كتابة الأسماء الأعجمية بالحروف العربية، ويلحظ أثر اختلاط البربرية بالعربية في تشكل كلمات تبدأ بحرف التاء مثل: تادمايت، بني تاجبيت، تيفلت، تاوريت ...[34]، أو تزاد فيها الهاء في حالة الجمع للاسم غير العربي للدّلالة على أنّه أعجمي مثل البرابرة، الطيالسة ...[35]، ويصل إلى نتيجة تتكلّم عن تغييرات طالت الأشكال اللّغوية في البلاد التي فتحها العرب[36]،

أفصح عنه الجواليقي بوضوح عندما قال: " إعلم أنّ العرب كثيرا ما يجترئون على تغيير الأسماء الأعجمية إذا استعملوها، فيبدلون الحروف التي ليست من حروفهم إلى أقربها مخرجًا، وربّما أبدلو ما بَعُد مخرجه، والإبدال لازم لئلا يُدخلوا في كلامهم ما ليس من حروفهم"[37] .

تتحمّل الكتابات المصدرية العربية جانبًا كبيرا من المسؤولية النّاتجة عن الهشاشة التي تُبنى عليها بعض المباحث في علم الأسماء، وهي هشاشة ناتجة عن الاختلافات الكثيرة في كيفيّة تدوين أسماء الأعلام والأماكن في المغرب الأوسط، إذ تُطرح تحدّيات كبيرة أمام الباحث بعد أن يجد نفسه أمام مجموعة من الصيغ لاسم علم واحد، فعلى سبيل المثال ورد اسم الثائر البربري المعروف تاريخيا باسم "كسيلة بن لزم" تحت عدة صيغ متقاربة، فهو في كتاب الرقيق القيرواني "كسيلة بن ليوم"، وعند ابن عبد الحكم "كسيلة بن لمزم"، وعند ابن الأثير "كسيلة بن كمرم"، وعند النويري "بهرم"، وعند خليفة بن خياط "كيزم"، ويظهر هذا الاختلاف في أسماء أخرى كثيرةً، فقد اضطربت المصادر في اسم "حبر بن تماشت" ذكر مرة باسم "خبر بن تماشيت" وأخرى "جبر بن نماسب"[38]، وذُكر "أبو يوسف ماكنون بن ذبارة" تحت صيغ أخرى فذكر "المكيون بن صبارة" و"ماقنون بن دبارة "[39]، تتكرّر مثل هذه الأخطاء النّسخية في أسماء الأماكن، وربّما اضطربت فيها المصادر أكثر اضطرابا من ضبط أسماء الأعلام، يُشير محقّق كتاب رياض النفوس للمالكي إلى أنّ المراجع اضطربت في كتابة اسم مدينة "لميس" اضطرابا كبيرا" ففي تاريخ إفريقية والمغرب وردت الكلمة مأروضة فقرأها المحقق "المسن" ، وفي البيان المغرب "المنستير" وجاء الاسم في نهاية الأرب "بليش" أو "مليش"، ويقول ابن الشباط في صلة السمط إنّ هذا الاسم ورد في بعض النسخ باللام والميم والياء، ويقع في بعض النسخ مصحّحا من الأول بميمين، وأوردها ابن خلدون "لميس" ، وكذا عند ابن أبي دينار، ولكن النويري

يذكرها "لميش"، ويقول أنّها في إحدى النسخ "بليش"[40]، وعلى نفس المنوال جاء أحد الأنهار التي عسكر عليها جيش المسلمين في المغرب الأوسط زمن الفتح تحت ثلاث تسميّات مختلفة، وردت عند الرقيق باسم نهر "بلى"، وعند ابن الأثير والنويري " نهر نيني"، وعند ابن عبد الحكم "وادي ترضى"[41]، تنسب بعض هذه الأخطاء للنسّاخ الذين لم يولوا العناية الكافية للاسم، فخرج عند مؤلف واحد يحمل اختلافا بين نسخة وأخرى .

أثّر هذا التّنوع والتّراكم الحضاري بشكل واضحٌ على القاموس اللغوي الاسمي الطوبونيمي خاصة، وأصبحت كثيرٌ من أسماء الأماكن القديمة مجهولة الدّلالة يصعب ربطها بأي أصل لغوي، وعليه فإن تأويلها يأتي متعسَّفا في كثير من الأحيان[42] إلا فيما بقي من هوامش من الصّحة تُدرك بالتّحري والمناورة والبحث مع بقاء احتمال الوقوع في الخطأ قائمة، ناتجة في بعض الأحيان عن أسباب أخرى كثيرة .

5. طموحات بحث تاريخية مؤجلة تنتظر تفعيل الدراسة الأونوماستيكة .

يُشكّل مجموع الأسماء الطوبونيمية المتعلّقة بمختلف مظاهر السطح كالجبال والعيون والأنهار والسّواقي، وبعض الأماكِنِ الآهلة كأسماء المُدنِ والقُرى، أو الخاليّةِ كالصّحارى والقفار، أو الأسماء الأنثروبونيمية المتعلّقة بالأعلام أو ما دلّ عليها مثل الكنى والألقاب وأسماء النّسبة ثراءً وبنكا اسميا يُرشَّح لتقديم نتائج معرفيّة مهّمة، ففي المباحث الثقافية يمكن للأسماء أن تكون مؤشّرا دالاّ على التّنوع اللّغوي الحاصل في منطقة جغرافية معيّنة، وذلك يتّضح في مجموع اللّغات التي كونت الرّصيد الأونوماستيكي للمنطقة سواء عند لحظة تسميّة المكان أو العلم، أو تلك التّطورات اللفظيّة الحاصلة عن لغات أخرى عرفت أسبقية حضور عبر المجال، مثل ما نجده من بقايا أسماء فينيقية ولاتينية قديمة، كما يمكّننا من الوصول عبر جداول إحصائيّة

للأسماء إلى قياس وتحديد نسب مئويّة دقيقة لعمليّة التّحولات اللّغوية الحاصلة من لغة إلى أخرى، وتحديد مدى انخراط مجتمع المغرب الأوسط في التعريب وتبنيه ثقافة ولغة جديدة وافدة، وكذا مدى التّمسك بالهويات القديمة وحضورها واستمراريتها على المستويين المكاني والزّماني، كما يمكن للأسماء أن تحمل الكثير من الدّلائل عن الحضور الديني لدى الأفراد والجماعات، ولا تقف عند هذا الحدّ، بل يمكن أن تحمل مؤشرات دالة على نوعيّة التّدين الحاضر وبقايا الممارسات الوثنية السابقة، ثم التّحولات العميقة التي عرفها مجتمع المغرب الأوسط عند تحوله للأسلمة بما تجاذبتها من تيارات مذهبية وعقدية معروفة، كما يمكن أن تكشف الأسماء عن أشكال حضور العصبيّة في ثقافة مجتمع المغرب الأوسط من خلال الانتماءات التي تظهر على مستوى أسماء النسبة، فقد جاءت في تحيل إلى انتماءات مختلفة ممثلة أحيانا بالعصبية للأجناس الكبرى مثل نسبة: البربري أو الفارسي أو الرومي،... وأحيانا أخرى دالة على الارتباط بالولاءات القبيلة تكشف عنها أسماء النسبة كالأوربي والصنهاجي والزناتي والهواري...، وجاءت أسماء أخرى دالّة على عصبيّة المذهب كالإباضي والصفري والمعتزلي...، ثم حدث تحوّل على مستوى أسماء النسبة عندما أصبح حضور المدينة واضحا مجسدا في أسماء نسبة جديدة مثل: التيهرتي، التنسي، الميلي...وغيرها .

أمّا عن أهمية الأسماء في رصد تحولات المجتمع، فيتحدّث "ستراوس"(Strauss)[43] عن أهمية دخول أسماء عناصر المحيط المادّي الطبيعي والحيواني الذي تسيطر عليه جماعة بشرية معيّنة في القاموس اللّغوي لهذه الجماعة البشريّة، ويَعتبر ذلك أحد المؤشرات الدّالة على قدم الجماعة في المكان، أو كونها مجرد جماعة طارئة، وهي الملاحظة التي حصل عليها من دراسته للمجتمعات البدائية في القبائل الإفريقية عندما لاحظ قدرة أفراد بعض هذه القبائل على تسميّة

أنواع مختلفة ودقيقة من النباتات وبعض الحشرات، وكذا معرفة الفروقات بينها، وكذا استعمال بعض النّباتات ومعرفة القيمة العلاجية لبعضها الآخر، فإذا تمّ إسقاط هذه الملاحظة على القبائل المغربيّة يمكن لنا أن نتتبّع مدى إدماج عناصر المحيط الطبيعي في النظام الأونوماستيكي لهذه القبائل، وهو ما يمكن أن يعتبر معيارا لتحديد القبائل المحليّة من القبائل الطارئة على المكان، وإن سبق التّنبيه عن أهمية الاسم كحقل بحثي فإن ستراوس(Strauss) يغوص به إلى مدارات أخرى، ويلفت انتباه الباحثين إلى ما تحويه الأسماء على اختلاف مدلولاتها من مخزونات معرفيّة إذا أخذت بعين الاعتبار، وتمت إحاطتها بالعناية الكافيّة واستغلالها بمناهج علميّة دقيقة، ومن هذا المنطلق، يأخذ الاسم أهميته باعتباره نوعا من الوثائق المتجدّدة باستمرارية وبأعداد لا متناهية، تتحيّن وتتغيّر مدلولاتها في حركية متكررّة، تعيدُ إنتاج أسماء الماضي، وتنفتح على أسماء تحمل معان ودلالات ثقافيّة واجتماعية أخرى جديدة مختلفة .

يتحدّث "إبراهيم عطوي" في مذكرته المقدمة لنيل شهادة الدكتوراه من جامعة ليون والموسومة بـ" الطوبونيميا والمجال في الجزائر"(**Toponymie et espace en Algérie**)[44]عن أهمية الطوبونيميا ودورها في الكشف عن حركة الشعوب القديمة والهجرات، وكيف تحمل الطوبونيميا إجابات عن أسئلة الماضي خاصة ما تعلّق منها بمحاولة إعادة بناء تصوّر عن ثقافات الشعوب في أنظمتها السّياسيّة، وحتى ما كانت تستعمله من ثروات معدنية وأنماط غذائيّة خاصّة، ولا يقف طموح البحث في الأسماء عند هذه النقطة فقط، بل يتجاوزها إلى الوقوف على الذّاكرة الجماعية للأمّة، ويقيم الدّليل الملموس من أجل البرهنة على التّجذر التّاريخي للإنسان المالك الأصلي للأرض، فهي تدعم إحساس الفرد والمجتمع بالانتماء الحضاري لمحيطه، وتمنحه الثّقة والاعتزاز بهذا الموروث الثقافي[45]، كما تمكّننا من التّعرف على أشكال

الاستيطان البشري، وعلى مختلف أشكال التّعمير، ويمكن انطلاقا من هذه النّتائج التأريخ للتّحوّلات البيئيّة ولطبيعة العلاقة بين الإنسان والمجال[46]، ويمكن أن تفضي بالباحث إلى اكتشاف أسرار وخبايا العقلية الجماعية ومدى تأثرها بمحيطها المادي والأيديولوجي في تحديد العلاقات المختلفة بين أفراد الجماعة الواحدة أو بين هذه والأخرى47 .

خاتمة

إنّ الوصول إلى الحقيقة التّاريخيّة أصبح يستوجب إدماج كثير من الأدوات التي يمكن أن تقدم الإضافة، ولقد كشفت طرق استغلال أسماء الأعلام والمواقع وفق منهجية علمية دقيقة عن مخزونات علمية وجب الانتباه لها وتنميتها من خلال الدفع بها نحو حضور أكبر خاصة في مباحث التاريخ الاجتماعي والثقافي، وتعترض هذه العملية البحثيّة صعوباتٌ كثيرةٌ ناتجة عن التنوع اللغوي والحضاري الذي عرفته المغرب الأوسط، وكذا عدم ارتقاء التدوين التاريخي إلى مستوى غنى المجال بالأحداث، وعدم العناية الكافية بالصيغ والإشكال الاسمية لدى المدونين وحتى لدى محققي المصادر وهذا ما فتح المجال أمام تحريفات أدت في بعض أحيانا إلى استدلالات خاطئة وإسقاطات متعسّفة .

إنّ تجاوز مثل هذه الصعوبات من شأنه أن يساعد على إعادة طرح كثير من القضايا الثقافية والاجتماعية في تاريخ المغرب الأوسط كالأسلمة والتعريب وحضور العصبيات وأشكالها، وكذا دراسة مجتمع القبيلة من حيث تفرّعاتها واستقراها وحركيتها عبر مختلف الأمكنة والمجالات وفق رؤية جديدة يمكنها أن تكشف عن بعض الخفايا، وتصحح نتائج كانت في وقت قريب ثوابت ومسلّمات في تاريخ المغرب الأوسط.

الهوامش:

[1] – عبد الرحمن بن محمد الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين، دمشق، دار الفكر، ج1، ص 06 .

2 – المصدر نفسه، ص 29 .

3 – بطرس البستاني، محيط المحيط، بيروت، مطبعة تيبو– برس، 1987، ص431 .

[4] – مصطفى الغلاييني، جامع الدروس العربية، بيروت، منشورات المكتبة العصرية، 1994، ج1، ص 109 .

5 – ف.زونابند ، " اسم " ، معجم الأثنولوجيا والأنثروبولوجيا، تر، مصباح الصمد ، بيروت – لبنان، المؤسسة الجامعية للدراسات مجد، 2006، ص 78 .

6 – المرجع نفسه، ص 78 .

7 – فتيحة رمضاني، عوامل اختبار الأسماء الشخصية في المجتمع الجزائري (دراسة ميدانية)، الجزائر، دار الأمة ، 2013 ، ص 23 .

8 – محمد سعيدي، " الاسم وأصوله الثقافية والاجتماعية"، أسماء وأسماء (دراسة الأعلام والحالة المدنية في الجزائر)، 2005، ص 15.

9 – المقال نفسه، ص 15.

10 – رحمة تويراس، تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي، الدار البيضاء – المغرب مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات ،2015، ص ص 277– 278.

11 – فتيحة رمضاني، المرجع السابق، ص 20 .

[12] – Auguste Longnon ,Les Noms de lieu de la France ; leur origine , leur signification , leurs transformations ,paris , librairie ancienne honoré champion , 1920 .

[13] - François Delaborde , Auguste Longnon ,Les Noms de lieu de France ; leurs origine , leurs signification, leurs transformation ,publié par Paul Marichal et Léon Mirot .In : journal des savants .19[e] année , Mai-juin 1921.pp.131-133.

[14] - Albert Dauzat , Les Noms de lieux : origine et évolution ,villes et villages ,pays, cours d'eau, montagnes, lieux-dits, librairie Delagrave ,paris ,1926.

[15]- b .c congrés de toponymie et d'anthroponymie .In : Bibliothèque de l'école des chartes.1938,tome 99.p. 429.

[16] – زهير بخوش، التركيبة البشرية لمجتمع الريف الأوراسي أثناء الاحتلال الروماني دراسة تحليلية ومقارناتية مع أسماء أفراد مجتمعات المراكز الحضرية الرومانية بـ أوراس، رسالة دكتوراه، إشراف محمد المصطفى فيلاح ، جامعة الجزائر 2 ،2017 ، ص أ .

[17] – محمد البركة،"الطوبونيميا بالغرب الإسلامي مقدمات في الفهم "، الطوبونيميا بالغرب الإسلامي أو ضبط الأعلام الجغرافية، الدار البيضاء،، إفريقيا للشرق ، 2012، ص 14 .

[18] – سعيد بنحمادة، "ملامح الطوبونيميا المائية بالمغرب والأندلس من خلال المصادر الدفينة " ، المرجع نفسه، ص 87 .

[19] – عبد المالك ناصري، " الطوبونيميا بالغرب الإسلامي تساؤلات منهجية" ، المرجع نفسه ،ص 59 .

[20] – محمد البركة، المقال السابق، ص 15 .

[21] - A.Pellegrin , Essai sur les nom de lieux D'Algérie et de Tunisie , étymologie, signification , tunis ,éditions S.A.P.I , 1949 .

[22] - Atoui Brahim , toponymie et espace en Algérie , thèse de doctorat , (S/D) . M.Marc cote , université de Provence (Aix Marseille 1), 1996 ,p. 5-6 .

[23] – خديجة ساعد، الطبونيميا الأمازيغية أسماء وأماكن من الأوراس، بسكرة – الجزائر ، دار النشر أنزار، 2017، ص 11.

[24] - Mostefa lacheraf , des noms et des lieux mémoire d'une Algérie oubliée , Alger, CSBAH éditions , 1998, pp. 145-170 .

[25] – فريد بن رمضان وآخرون،أسماء الأماكن والأشخاص الجزائرية مصنف ببيليوغرافي عام، وهران، مركز البحث في الانثروبولوجية الاجتماعية والثقافية، 2005

[26] - Mohand –Akli Haddadou, Dictionnaire toponymique et historique de l'Algérie, Tizi – Ouzou , Algérie , Achab ,2012 .

27 - Mohand –Akli Haddadou, Glossaire des termes arabes et berbères entrant dans la toponymie Algérienne ,Alger , ENAG éditions , 2011 .

[28] - Actes du colloques national , De la toponymie Algérienne du local au national 25,26,27juillet 2015) , ENAG , 2016 .

[29] – حبيب حاج أحمد، أسماء الأماكن الأمازيغية في منطقة تلمسان دراسة مواقعية، رسالة دكتوراه، إشراف، عبد الحق زريوح، جامعة تلمسان، 2013.

[30] – فاطمة الزهراء نجراوي حول موضوع الدراسة الايتيمولوجية لأسماء الأماكن المأهولة مقاربة لغوية تطورية منطقة تلمسان أنموذجا، رسالة دكتوراه إشراف، سعيدي محمد، جامعة تلمسان، 2018 .

[31] – فتيحة رمضاني، المرجع السابق .

[32] – قابريال كامبس ، البربر ذاكرة وهوية ، ت ، عبد الرحيم حزل ، المغرب ، إفريقيا الشرق، 2010، ص 11 .

[33] – عبد الرحمن بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تح ، خليل شحاته ، سهيل زكار، بيروت – لبنان، دار الفكر، 2001 ج 1 ص 44 .

[34] – إبراهيم موسى الزقوطي، أسس الأسماء الجغرافية ، الأردن، المركز الجغرافي الملكي الأردني، 1997، ص 15 .

[35] – المرجع نفسه، ص 12 .

[36] – المرجع نفسه ، ص 08 .

[37]– الجواليقي ، المعرب من الكلام الأعجمي ، دار القلم ، ص 65 .

[38] – المصدر نفسه، ص 316 .

[13] – المصدر نفسه، ص 50 .

[40] – أبو عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونسائهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تح ، محمد العروسي المطوي ، ط2، دار الغرب الإسلامي، 1994، ج1، ص 35 .

[41] – المصدر نفسه، ج1، ص ص 50–51 .

[42] – رحمة تويراس، المرجع السابق، ص 277 .

[43] – ليفي شتراوس، الفكر البري، تر، نظير جاهل، ط03، بيروت – لبنان، مطبعة مجد ، 2007 ، ص 24 .

[44]- Atoui Brahim , op.cit , p.12 .

[45] – خديجة ساعد، المرجع السابق ، ج1، ص 07 .

[46] – عبد المالك ناصري، المرجع السابق، ص 62 .

[47] – علي صدقي أزايكو، المرجع السابق ، ص 11.